مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

في التَّسْلِيمِ لِلْعِتْرَةِ الطَّاهِرَة:

الخِطَابُ المُتَنَاظِرُ فِي الحِجَاجِ تَحْلِيْلٌ دَلَالِيٌّ لِمُنَاظَرَاتِ الإِمَامِ الكَاظِمِ عليه السلام

ميادة كامل أحمد إسبر [1]

١ جامعة حماة / كُلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة / قسم اللُّغة العربيَّة، سوريا؛

mayada.74@hotmail.com

دكتوراه في اللغة العربية / مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٤/٥/٥	٢٠٢٤/٦/١١	٢٠٢٤/٩/٣٠

المجلــد (١٩) العــدد (٣١)
رَبِيْع الأَوَّل ١٤٤٦هـ . أَيْلُول ٢٠٢٤ م

DOI:
10.55568/t.v19i31.55-76

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث

يندرج هذا البحث ضمن المساعي النقديَّة التي تهتمُّ بالتحليل الدلاليّ للنشاط الكلاميّ، الذي بُنيَ عليه أدب المناظرات، بهدف الكشف عن الأبعاد الحِجاجيَّة في متن من المتون الكلاميَّة، عبَّر عن الطبيعة الحواريَّة للنشاط الثقافيّ في العصر العبَّاسيّ، نعني بذلك كتاب "بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار"، الذي اشتمل على نصوص أحالت على ممارسةٍ عقليَّةٍ وبيانيَّة، حملت في أطوائها خصائص الذهنيَّة العربيَّة، في عصرٍ وُسِم بالتعدُّد والتنوُّع الفكريّ، فكان مُنجَزه النقديّ والبلاغيّ تمثيلاً دقيقاً لمنازع العصر، كما كان تجلّياً من تجلّيات الاشتغال البلاغيّ، الذي اهتمَّ بإنشاء النثر، من رسائلَ وخُطبٍ ومناظرات، فضلاً عن عنايته بالشعر.

من هنا انصرف البحث إلى الكشف عن الفهم النقديّ لنظريَّة الحِجاج، كما تجلّت في المؤلَّفات البلاغيَّة في التراث العربي، وكما جَلَتها الممارسة الكلاميَّة، في فنٍّ من فنون الكلام العربيّ؛ هو أدب المناظرة.

لهذا فقد انطلق هذا البحث من تحليل تقنيَّات المحاورة والجدل في كتاب"بحار الأنوار"، التي استندت إلى ما عرفته العقليَّة العربيَّة من علوم المنطق، والفلسفة، تلك التي نهضت عليها المؤلَّفات البلاغيَّة منذ عصورها المبكرة.

وتأسيساً على هذا الفهم اهتمَّ البحث بالوقوف على العلاقة بين خطاب السلطة، المتمثّل في خطاب الحاكم هارون، والخطاب الثقافيّ الذي أُنجِز خارج أسوار البلاط العبَّاسيّ، متمثِّلاً في خطاب الإمام الكاظم عليه السلام، في محاولة لاستجلاء أساليب الجدل، وتقنيَّاته، ومنظومة الحُجج، وأنواعها، وما أضمرته في قرارتها من أنساق معرفيَّة، واجتماعيَّة، وعَقَديَّة، فكانت صورةً من صور التجاذب الفكريّ والعقليّ، في أزهى عصور الحضارة الإسلاميَّة في تاريخها الطويل.

الكلمات المفتاحية: الخطاب المتناظر، الحِجاج، تحليل دلالي، الإمام الكاظم عليه السلام

Symmetrical Discourse in Argumentation (Semantic Analysis of Imam al-Kadhim Debates)

Mayada Kamel Ahmed Isber [1]

1 University of Hama / College of Arts and Human Sciences / Department of Arabic, Syria;

mayada.74@hotmail.com

PhD. in Arabic Language/ Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
5/5/2024	11/6/2024	30/9/2024

DOI: 10.55568/t.v19i31.55-76

Volume (**19**) Rabi'a Alawwal 1446 AH.
Issue (**31**) September 2024 AD

CC BY NC

Abstract

This research falls within the framework of critical endeavours that focus on the semantic analysis of discourse on which the literature of debates is founded to uncover the argumentative dimensions within a specific textual corpus, namely "Bihar al-Anwar al-Jami'a li Durar Akhbar al-A'immah al-Athār". This book, which reflects the dialogical nature of cultural activity in the Abbasid era, contains texts that allude to intellectual and rhetorical practices and embodies the characteristics of the Arab mind in an era marked with intellectual diversity. Its critical and rhetorical achievements serve as an accurate representation of the intellectual challenges of the time and exemplify the engagement with rhetoric that focuses on the creation of prose: letters, speeches, debates and poetry.

The research then draws attention to uncovering crucial insights into the theory of argumentation found in Arabic rhetorical texts and in the practical application of rhetoric, particularly in the art of debate. First, this research examines the methods rooted in the Arab mind to the comprehension of logic and philosophy, which form the basis of rhetorical works. These methods have been developed since the ancient times, when dialogue and debate were first introduced in the book "Bihar al-Anwar".

Based on this understanding, this research examines the relationship between the discourse of authority, represented by the discourse of the Abbasid Caliph, and the cultural discourse produced outside the Abbasid court, as exemplified with the discourse of Imam Al-Kadhim (p.b.u.h.). This study aims at elucidating the methods, techniques, systems of arguments and their underlying epistemological, social, and theological frameworks. This represented a form of intellectual and rational interaction during one of the most flourishing periods in Islamic civilization.

Keywords: dialogical discourse, argumentation, semantic analysis, Imam Al-Kadhim (peace be upon him)

مقدِّمة في البلاغة العربيَّة:

ينـدرج هـذا البحـث ضمـن المسـاعي النقديَّـة التـي تنطلـق مـن معطيـات علـم الدلالـة، وإجراءاتـه التحليليَّـة، التـي تـروم الكشـف عـن الوعـي الحِجاجـيّ في الـتراث العـربي في بُعـده البلاغـيّ والأَلسُـنيّ، وذلـك كـما جَلَتْـهُ أقـلامُ المتأدِّبين والبلاغيّين، وكـما مثَّلتْـه النصـوص في البيـان العـربيّ، منـذ أن غـدا النّثـرُ ديـوانَ العـرب الحـقّ، عـلى نحـوِ مـا ذهـب الدَّارسـون المعـاصرون.

فـإذا كانـت البلاغـة العربيَّـة قـد تأسَّسـت عـلى علـوم البيـان، التـي نهضـت في جُلِّهـا عـلى علـم اللُّغـة، فإنَّهـا قـد نَحَـت في بعـض مناحيهـا إلى جهـة المنطـق، والنظـر العقـليّ، في تصريـف وجـوه الـكلام العـربيّ. ونَجَـمَ عـن ذلـك مباحـث في علـم الـكلام، والمذهـب الكلاميّ عنـد العـرب، بـدءاً مـن قُدامـة وابـن المعتـز، ووصـولاً إلى السـكَّاكيّ، والسّـجلماسيّ في العهـود المتأخِّـرة مـن الـدرس البلاغـيّ، الـذي تنـاول الأسـاليب العربيَّـة مـن جِهـةِ التّعبـير والتصويـر عـلى حـدٍّ سـواء.

ولم تكُـن، بنـاءً عـلى ذلـك، نظريَّـة الحِجـاج بـما انطـوت عليـه مـن مفاهيـم، وإجـراءات، إلاّ نتاجـاً لتلـك النظـرات البلاغيَّـة التـي تمخَّضـت عنهـا العلـوم العربيَّـة، وطوَّرتهـا العلـوم اللِّسـانيَّة المعـاصرة، فكانـت الحقـلَ المعـرفيَّ الـذي تلاقـت فيـه جُـلُّ الاتجاهـات النقديَّـة، التـي عُنِيـت بالنـصِّ وعلومـه، مـن أسـلوبيَّة، وتداوليَّـة. فضـلاً عـمّا أنتجـه التحليـل الـدلاليّ المنبثـق عـن العلـوم اللِّسـانيَّة مـن نظريَّـات في تحليـل الخطـاب، ومقاربـاتٍ في دراسـة علـم لغـة النـصِّ، والتماسـك النـصّيّ.

وظلّـت بنـاءً عـلى ذلـك البلاغـة العربيَّة مَـراداً خِصباً لأقـلام الدّارسـين والمنظِّرين لتلـك العلوم، بمناهجهـا وطرائقهـا، وأدواتهـا وإجراءاتها. كـما ظلّت المتون الشـعريَّة والنثريَّة روضـةً أُنُفاً، تطلَّعت إليهـا أنظـار الدارسـين، تستجلي أسرارهـا الخبيئـة، وتلقطُ دُرَّهـا المكنون. ومـا يزال الجَـمُّ الغفير من هـذه المتـون مستسرّاً في مظانّـه، وبصـورة خاصَّـة تلـك النصـوص التـي نهضـت بوظيفـة ثقافيَّة ذات طبيعـة مغايـرة لمـا كان ينتجـه الأدب الرسـميُّ مـن نصـوص. وهـي، وإن جـاءت، متداخلـةً معـه في بعـض الأحيـان، عـلى نحـو مـا نجـد في فـنّ المناظـرة، فإنَّهـا كانت تُحيـلُ على نسـقٍ معـرفيّ ذي حضورٍ منبثـق عـن الذاكـرة الموروثـة للجماعـة اللُّغويَّـة. وفي الوقـت عينـه كانـت تسـعى إلى تشييد نظامهـا الخـاص ضمـن مجـالٍ مـن الحـدود والأعـراف، كان يُتيحهـا النظـام الثقـافيّ من عـصرٍ إلى آخـر.

ولذلك فقد انطلق البحث من مقدِّمةٍ عامَّةٍ في البلاغة العربيَّة وما انطوت عليه من إشارات، ونظرات، عُدَّت أساسَ نظريَّة الحِجاج الحديثة، وبيَّنَ صلة الحِجاج بإحياء البلاغة عند الدّارسين المعاصرين، لينتقل بعد ذلك إلى تبيان أهمِّيَّة الفكر الحِجاجيّ في كتاب "بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمَّة الأطهار"، للوصول إلى النسق المعرفيّ والبلاغيّ الذي انطوت عليه نصوص الكتاب، ولاسيَّما في الجزء الثامن والأربعين منه، الذي كان مدارُه على أخبار الإمام موسى بن جعفر الكاظِم ﷺ، ومناظراته مع الخلفاء، ووصاياه.

فكان الكشف عن النسق المعرفيّ في مناظرات الإمام ﷺ جسراً إلى الكشف عن الأنساق المعرفيَّة في عتبات النص المتناظر، إذ شكّلَ خطابُ الإمام ﷺ خطاباً مناظِراً لخطاب السلطة، وكان من ثَمَّ حِجاجُه الكلامي احتواءً لخطاب السلطة، من أجل الوصولِ إلى إيقاع التصديق، بوساطة تقنية الإقناع الحِجاجيَّة.

وكان الكشف عن تقنية الحِجاج بالقرينة يُمثِّل الوصولَ إلى كُنْهِ الفكر الحِجاجيّ عند الإمام الكاظم ﷺ، إذ إنَّه يُحيلُ على إيقاع اليقين في ذهن المُخَاطب، وتحقيق الغاية النّهائيَّة من الحِجاج، وهي الغَلَبةُ بالحُجّة والبرهان.

لينتهي البحث إلى جُملة المنهج العقليّ في خطاب الإمام الكاظم ﷺ، الذي تجلَّى في صحيفته المكتوبة إلى الحاكم هارون العبَّاسيّ، وقِوامها قياس الحُجّة على شرطِ العقل، بوصف العقل حيِّزاً مشتركاً بين البشر جميعاً.

وخَلُصَ البحث إلى جملةٍ من النتائج مَثَّلت ما توصَّل إليه التحليلُ الدِلاليُّ من مقوِّمات النظر العقليّ، والمذهب الكلاميّ في مناظرات الإمام الكاظم ﷺ.

ومن هنا كان منهجُ عِلمِ الدَّلالة، بما يوفِّرهُ من أدواتٍ وإجراءات، تُسعِفُ في الانتقال من الملفوظِ اللّسانيِّ إلى الأنساق الحافَّة بالنّصِّ، هو المنهجَ المعتمَد في البحث، لِما له من صِلةٍ وشيجةٍ بالجهود اللُّغويَّة والبلاغيَّة، في التراث العربيّ، وبخاصّةٍ في مؤلَّفات نَحَتْ نحواً منطقيّاً في تناولها لوجوه الكلام العربيّ، في مؤلَّفات الفارابيّ، وابن سينا، وابن رشد، والقاضي عبد الجبَّار، وحازم القرطاجنّيّ، على نحو ما سيتبيّن في أطواءِ البحث، ممَّا يؤكِّد أنَّ

الفِكـرَ الحِجاجـيّ منبثـقٌ عـن هـذه المؤلَّفـات وأشـباهِها في الـتراث البلاغـيّ العـربيّ.

وبنـاءً عـلى ذلـك، كان مَنهـجُ علـم الدلالـة نقطـةَ التقـاءٍ لأنـواعٍ مـن التفكـير والمناهـج، مثـل الفلسـفة، والمنطـق، وعلـم اللُّغـة، فضـلاً عـن صِلتـهِ بالأنسـاق التّاريخيَّـة، والاجتماعيَّـة، التـي يصـدرُ عنهـا المتكلّـم، وبصـورةٍ خاصّـة في نـوعٍ مـن أنـواع الـكلام يقـومُ عـلى التّبـادل الكلامـيّ بـين مُتخَاطبَـين أو أكثـر؛ نعنـي بذلـك فـنّ المناظـرة.

الحِجاج وإحياء البلاغة:

أَسّسـت البلاغـةُ العربيَّـة منـذ عصورهـا المبكِّـرة نسـقاً مـن التصـوُّرات الجماليَّـة، والمقـولات المنطقيَّـة، التـي أصّلتهـا أقـلام المتأدِّبـين مـن نَقَـدةِ الشّـعر والبلاغيّـين واللُّغويّـين منـذ ابـن المعتـز وقدامـة بـن جعفـر، واسـتطاعت أن تُسـامِتَ في خطابهـا التنظـيريّ مـا أنتجتـه قرائـح الشـعراء، وأقـلام الناثريـن والمترسّـلين، وألسـن الخطبـاء والمتكلِّمـين، فأنتجـت علـمًا واسـعًا لا تنقـضي عجائبـه، ولا تندثـر أوابـده.

وليـس يُغنينـا أن نقرَّ أو نعـترض عـلى الأثـر اليونـانيّ، الـذي ألقـى بظلالـه عـلى التفكـير البلاغيّ عنـد العـرب، إذ لـه مظانُّـه التـي فيهـا مَقْنَـع لـكلِّ مسـتزيد[٢١]. وذلـك لأنَّ إثبـات أصالـة التفكـير الحِجاجـيّ عنـد العـرب مـن تقـصّي سـنوح لفـظ الحِجـاج والمُحاجَّـة في المتـون البلاغيَّـة، وفي النـصِّ القـرآنيِّ أمـر ليـس فيـه كبـير غَنـاء، ولا نُجعـة، مـا لم يُقـرَن إلى معرفـة أسـاليب الحِجـاج وطرائقـه، والمذهـب الكلامـيّ، وصنعـة الـكلام وفنـون الجـدل.

ويكفـي هنـا أن نقـف عـلى تعريفـات كاتـب كالجاحـظ للبلاغـة في معرفـة الفصـل مـن الوصـل، وتصحيـح الأقسـام، واختيـار الـكلام، وحسـن الاقتضـاب عنـد البداهـة، والغـزارة يـوم الإطالـة، ووضـوح الدَّلالـة، وانتهـاز الفرصـة، والبـصر بالحجَّـة، والتمـاس حسـن الموقـع، والمعرفـة بسـاعات القـول وقلَّـة الحـرف مـع حسـن السـنّ والسـمت[٣]، والجـمال وطـول الصمـت لنتبـيَّن أنَّ الحجـاج ارتبـط بالمقامـات الشـفاهيَّة التـي تكتنفهـا الخطابـة والمناظـرة في أصـل وجودهـا. ولا يخفـى عـلى

١ حسين، طه . تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، مقدمة نقد النثر المنسوب إلى قدامة، تحقيق. عبد الحميد عبادي (المطبعة الأميريّة، د.ت.).

٢ هلال، محمد غنيمي .النقد الأدبي الحديث (بيروت: دار العودة، ١٩٧٣)، الباب الثاني / الفصل الأول.

٣ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر .البيان والتبيين، تحقيق. عبد السلام هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٣)، ج١/ ٤٩.

الناقد البصير ما لمقام المشافهة من بُعدٍ تداوليّ اهتمَّت به نظريَّات الحِجاج التي عُدّت إحياءً جديداً للبلاغة القديمة[٤]، بوصف المقاربة التداوليَّة ممارسة منهجيَّة، تدرس الجانب الوظيفيّ، والسياقيّ في النصِّ، وتبحث في العلاقة بين المتكلِّم والمخَاطَب، مع التركيز على البُعد الحِجاجيّ الإقناعيّ، والسياق التواصليّ، والوظيفة الحواريَّة، والمقاميَّة للنصوص.

ولعلَّ الناظر قبل ذلك في كتاب مُحَمَّد العمري: البلاغة العربيَّة أصولها وامتداداتها[٥]، يجد في أبوابه مقاربات تلامس إجراءات التحليل الحِجاجيّ، على نحو ما اتَّضح وتكامل عند المتأخِّرين، ممَّن عنوا بالتفكير النقديّ والبلاغيّ عند العرب.

لقد تنبَّهت نظريَّات الحِجاج المعاصرة على ما للجدل والمناظرة والاستدلال من صلات وشيجة في بناء هذا العلم، إذا جاز لنا أن نَعدَّه علماً، من جهة ركونه إلى العقل والبرهان، واعتماده معايير الصدق والكذب، والظنِّ واليقين في تناول أساليب المتكلِّمين باللُّغة.

ومادام الجدل لوناً من ألوان الكلام، قائم على استعمال الحجّة لأغراض الإقناع، وإيقاع التصديق، أو اليقين، أو لتحقيق الغلبة بالدليل والبرهان[٦]، فإنَّه أَدْخَلُ في باب المناظرة منه في باب الخطبة؛ لأنَّ المقدِّمات في القول الخُطَبي مؤتلَفة من المظنونات المرجَّحَةِ الصدق على الكذب، وأمَّا ما ائتلف منها من المقدِّمات الصادقة فهو قول برهانيّ، وما ائتلف من المشهورات فهو جدليّ.[٧]

فالجدل هو اللَّدَدُ في الخصومة والقدرة عليها، والمجادلة هي المناظرة والخصومة، ومقابلة الحجَّة بالحجَّة[٨] وفي مقاييس اللُّغة الجدل من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه امتداد الخصومة ومراجعة الكلام[٩]. ومدار الجدل على العقل، وهو يقتضي البلاغة، إذ اللُّغة مظهره الأوَّل[١٠] فلا يكون المتكلِّم جامعاً لأقطار الكلام متمكِّناً في الصناعة حتَّى يكون

٤ سلمان، علي محمد علي .الحجاج عند البلاغيين العرب، ضمن دراسات الحجاج والاستدلال الحجاجي (دراسات في البلاغة الجديدة لمجموعة من الباحثين(دار ورد الأردنية، ٢٠٠١).

٥ العمري، محمد. البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها (المغرب: أفريقيا الشرق، ١٩٩٩).

٦ الأفريقي، محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب، ط١ (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ج٢/ ٢٢٨.

٧ القرطاجنّي، أبو الحسن حازم .منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق. ابن الخوجة محمد الحبيب، ط٢ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١)، ٨٣.

٨ الأفريقي، لسان العرب، مادة(جـ د ل).

٩ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق. عبد السلام هارون (بيروت: دار الجيل، د.ت.)، مادة (جـ د ل) ج١ / ٤٣٣.

١٠ النعمي، حسن ."بلاغة المجادلة،" جذور التراث، ٢٠٠٥، ١٦.

الـذي يحسّ مـن كلام الديـن في وزن الـذي يحسّ مـن كلام الفلسـفة.[١١] وعـلى هـذا يكـون الجـدل آلـة الحجـاج العقليَّـة، وتكـون المناظـرة تجسـيداً كلاميّـاً للممارسـة العقليَّـة، التـي تتوسَّـل باللُّغـة لتحقيـق مقاصـد تواصليَّـة، تُعنـى بالإقنـاع، فضـلاً عـن عنايتهـا بالتوصيـل؛ إذ هـي قائمـة عـلى مخاطبـة بـين اثنين يقصـد كلٌّ واحـد منهـما غلبـة صاحبـه.[١٢] فهـو ارتيـاض للعقـول قائـم عـلى تبـادل كلاميّ بـين متخاطِبَين، يهـدف كلٌّ منهـما إلى إيقـاع التصديـق، وصـولاً لمشـاركة الإنسـان غـيره، ليصـير مُعَـدَّاً للعلـوم اليقينيَّـة.[١٣]

- النَّسق المعرفيّ والبلاغيّ في كتاب بحار الأنوار:

والبيـان العـربيّ يزخـر بنصـوصٍ مـا تـزال في حاجـةٍ إلى البحـث والتحليـل الحِجاجـيّ، وفـق إجـراءات المناهـج اللِّسـانيَّة، ويـأتي في مقدِّمتهـا كتـاب "بحـار الأنـوار الجامعـة لـدرر أخبـار الأئمَّـة الأطهـار"[١٤] الـذي يقـع في مئـة وعـشرة مجلَّـدات، إذ ينهـض متنـاً واسـع التنـوُّع مـن النصـوص، التـي وقفـت خطابـاً شـاخصاً بـإزاء خطـاب السـلطة، ومـا انضـوى تحـت كنفـه مـن نصـوص تعـبِّر في وجوهـا المختلفـة عـن الثقافـة الرسـميَّة، وذلـك لتبيـان البنـاء العقـليّ، الـذي بُنيـت عليـه نصـوص الكتـاب، والمنطـق الاسـتدلاليّ، الـذي كفـل لهـا البقـاء عـلى وجـه الدهـر، وفيـه أجـزاء في الاحتجـاج والمناظـرة وكفـى بذلـك دليـلاً عـلى أهمِّيَّـة العـودة إليـه بـأدوات التحليـل الـدلاليّ ومـا يوفِّـره علـم الجـدل والمنطـق مـن إجـراءات تحليليَّـة، تتيـح الوقـوف عـلى أنسـاقه في عصـور بـدا الـكلام في ذاتـه سـلطة، وغـدا الـكلام نشـاطاً ثقافيًّـا متميـزاً ولاسـيَّما في عـصر شـديد التنـوّع، عنيـف التدافـع كالعـصر العبَّـاسيّ.

فقـد كانـت النصـوص خـارج أسـوار قصـور الخلفـاء تمـارس لونـاً مـن ألـوان المناظـرة والجـدل الحِجاجـيّ، وقـد تباينـت نظـرة الخلفـاء إزاء هـذا اللَّـون مـن النصـوص عـلى وفـق سياسـاتهم في الملـك، ولم تكـن تلـك النصـوص بمنـأى عـن التأثُّـر والتبـادل المعـرفيّ بـما كان يُنجَـز داخـل أسـوار البـلاط مـن نصـوص ومحاجَّـات ومناظـرات. غـير أنَّهـا مـع ذلـك كوَّنـت نسـقاً معرفيّـاً انـماز

١١ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. كتاب الحيوان، تحقيق. عبد السلام هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٣)، ج٢/ ١٣٤.
١٢ ابن رشد، أبو الوليد بن رشد. تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل، تحقيق. محمد سليم سالم (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠)، ٥.
١٣ ابن رشد، ٢٠٣/ ب١٤ / ٢٠٤/ ب١٩.
١٤ المجلسي، محمد باقر. بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمة الأطهار، ط٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.).

بمنهج في الاستدلال الحِجاجيّ، عبّر عن رؤية عقليَّة مستمدَّة من القمَّة البيانيَّة الشاخصة في الوجدان الجمعيّ للأمَّة الإسلاميَّة، نعني بذلك النصَّ القرآنيَّ الكريم.

وعلى هذا لم تكن المناظرات التي دارت بين الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر الكاظم ﷺ والحاكم هارون العبَّاسيّ إلَّا نوعاً من تلك التبادليَّة المعرفيَّة الواعية بين خطابين: خطاب السلطة وخطاب ضدَّ السلطة؛ إذ إنَّ المناظرة أُشربت في تكوينها خصائص الخطبة، بفضل مقامها التداوليّ القائم بين متكلِّم وسامع، يتعاوران ناصية الكلام، فنهضت على أساليبها الجدليَّة، وطرائقها الاستدلاليَّة، فضلاً عن احتوائها النسق التاريخيّ والمعرفيّ لكلا المتخاطبَين اللَّذَين يسعى كلٌّ منهما إلى الغلبة بالحجّة، وهو كنه نظريَّة الحِجاج البلاغيّ، أو -إن شِئتَ- البلاغة الحِجاجيَّة.

إنَّ هذا الوعي بمستويات التخاطب ينبلج عن القراءة النقديَّة الدقيقة لمناظرات الإمام الكاظم ﷺ بما يشي أنَّ الممارسة الكلاميَّة عنده لم تنبثق عن معرفة بحيثيات النسق الدينيّ في صلته بالسياسيّ وحسب، وإنَّما كان يصدر عن رؤية عالية وعلم دقيق بوجوه التصرُّف بفنون القول، ولم يكن استعمال اللُّغة جرياً على أَمَم مرسوم، وسَمْت معلوم، بما رِيْضَتْ به على ألسن مستعمليها بقدر ما كان استنباطاً للمنطق من داخل اللُّغة نفسها واجتراحاً للُّغة من داخل المنطق، فإذا المعاني تنبجس عن فكر ثاقب وروية صافية، وإذا الألفاظ تدلُّ على معانٍ وضيئة صحيحة في المنطق، ويغدو النصُّ متوالية من الحُجج البرهانيَّة والتحليليَّة، ونسق متَّسق مع الاستدلالات بحيث يمكن تجريده والنظر إليه بوصفه تمثيلاً لغوياً لبناء متماسك شاخص في الفكر والوعي الجمعيّ لمستعمليّ اللُّغة نفسها.

من هنا كان التحليل الدلاليّ لمناظرة الإمام الكاظم ﷺ والحاكم هارون يتيح لنا تبيان الآليات التي تعمل من خلالها اللُّغة، بوصفها نظاماً ذا بناء منطقيّ، والفاعليَّة التي تنشط من خلالها المتواليات المنطقيَّة، بوصفها وحدات عقليَّة تجريديَّة، تنهض على أساس قوي ذي نسق مشترك هو اللُّغة. إذ تُبنى المناظرة على خطابين متناظرين يتخلَّلان النسيج اللُّغوي ويتوزّعان على النحو الآتي:

١- عَتَبَة المناظرة.

٢- الحُجّة بالأثر.

٣- الحُجّة بالقرينة.

وانطلاقاً من هذا التقسيم الثلاثي لمناظرة الإمام الكاظم ﷺ والحاكم هارون العبَّاسيّ، يمكن الوقوف على تناظر الخطاب بين المتخاطبَين على نحوٍ تغدو فيه العَتبةُ انفتاحاً للأنساق المعرفيَّة، وتغدو الحُجَّة بالأثر احتواءً للمُخاطَب، والحُجّة بالقرينة موافقةً على المطلوب على النحو الآتي:

١- انفتاح الأنساق المعرفيَّة في عتبات النَّصِّ المتناظر.

٢- الحُجّة بالأثر واحتواء المُخاطَب.

٣- الحُجّة بالقرينة والموافقة على المطلوب.

١- انفتاح الأنساق المعرفيَّة في عَتَبَات النَّصِّ المتناظر:

ولابدّ لأيِّ تحليل دقيق لنصٍّ ذي طابع جدليّ، أن ينفتح على الرؤى التي تصدر عنها الأنساق الخطابيَّة، متجاوزاً الخصائص الشكليَّة والجماليَّة، التي ينطوي عليها النَّصُّ، انطلاقاً من معايير أدبيَّة ولسانيَّة صِرف. إذ إنَّ طابع الخطابة والمناظرة يميل في كليهما على ضرورات تداوليَّة تحيط بالنَّصِّ نفسه، وَيبدو معها التحليل قاصراً وعديم الفائدة إذا ما أسقط مقامات التخاطب وعتبات النصِّ والأنساق المضمرة فيها، ومادام النَّصُّ ذا طابع حِجاجيٍّ فإنَّه لا غُنْيَةَ للتحليل وقتئذٍ عن مراعاة انفتاحه على الأنساق المعرفيَّة الحافَّة، لينكشف نسيج الأنظمة المتداخلة التي أسهمت في تشكيل النَّصِّ، بوصفه فضاءً منظَّمًا لأنساق متعدِّدة، فالنصُّ، من وجهةٍ دِلاليَّة، كمِّيَّةٌ منظَّمةٌ من القضايا التي ترتبط بوساطة علاقات دلاليَّة منطقيَّة[١٥]، تنفتح فيها عمليَّات التدليل داخل النَّصِّ وخارجه في آن معاً.

فإذا كانت المقدِّمات، والعَنْوَنَة، وصفحات الغلاف، تُحيل على عتبات النَّصِّ[١٦] في مقام الخطاب المدوّن، فإنَّ الطابع الشفاهي للخطابة والمناظرة، يجعل من الشروح الحافَّة بالنَّصِّ

١٥ هاينه، فولفجانج. مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة. فالح العجمي (جامعة الملك سعود: سلسلة اللغويات الجرمانية، د.ت.)، ٥٠.
١٦ الإدريسي، يوسف . عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، ط١ (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٥).

من حيث مناسبته وفضاؤه الزمانيّ والمكانيّ، واستهلالاته، وخواتيمه، وأشخاصه، تمثيلاً لغويًّا لعتبات النَّصِّ، واجتيازاً للمسافة بين الأنساق المعرفيَّة للولوج إلى عوالم النَّصِّ.

تبدأ المناظرة باستهلال الحاكم، مُبْتَدِراً الإمامَ ﷺ بالسؤال:

((وأنا أريد أن أسألك عن أشياء تتلجلج في صدري منذ حين لم أسأل عنها أحداً فإن أنت أجبتني عنها خلّيت عنك ولم أقبل قول أحد فيك، وقد بلغني أنَّك لم تكذب قط، فاصدقني عمَّا أسألك ممَّا في قلبي. فقلت: ما كان علمه عندي فإنِّي مخبرك به إن أنت آمنتني. قال: لك الأمان إن صدقتني وتركت التَّقيَّة التي تُعرفون بها معشر بني فاطمة. فقلت: ليسأل أمير المؤمنين عمَّا شاء))[١٧].

إنَّ نظرةً مُتأنيَّةً في الاستهلال الذي بين أيدينا تقفُنا على وجود خطابين، مادام ينهض على مناظرة بين متخاطبين، يضمر كلُّ خطاب منهما نسقاً معرفيًّا واجتماعيًّا، ويبدو كلُّ خطاب بنيةً دلاليّةً تنتجها ذاتٌ ضمن بنيةٍ نصيَّة، في إطار بنية أوسع، اجتماعيَّة، وتاريخيَّة، وثقافيَّة[١٨]. ولا يكتسب التخاطب معناه إلَّا بالنظر إليه على أنَّه علاقة بين أبنيةٍ عقليَّة، تنتج عن جملة من الأنساق الدَّالَّة، وبيان ذلك في الآتي:

إنَّ خطاب الأمير يُحيل على السلطة، بيد أنَّه في الوقت عينه يُعبِّر عن جماعة ثقافيَّة لها عقائدها ومقولاتها، وأمَّا خطاب الإمام ﷺ فهو خطاب موازٍ لخطاب السلطة متغاير عنه، ومفارق له، حتَّى إنَّه على مستوى الدلالات يمثِّل خطاباً نقيضاً تنساق دلالاته بخلاف وجهة خطاب السلطة، ولهذا كان يبدو خطاب الحاكم خطاباً يسائل النسق المعرفيّ، الذي يحيل عليه حضور الإمام ﷺ في بلاط الحاكم.

وتأسيساً على النسق الاجتماعيّ وما يعرضه من مقولات خارج نصِّيَّة، تؤسِّس للمقام التخاطبيّ (الحاكم/ الإمام)، تنهض المناظرة على ميثاق تعاقديّ بين المتخاطبَين، مداره على الصدق المعرفيّ كشرط أوَّليّ للوصول إلى التصديق الفكريّ في مقابل الأمان.

(اصدقني/ لك الأمان)

١٧ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٤٨/ ١٢٦.

١٨ عزام، محمد .النص الغائب (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١)، ١٤.

ففي اللَّفظ (اصدقني) تتَّجه فاعليَّة الخطاب من الإمام إلى الحاكم أمَّا في اللَّفظ (لك الأمان) فالدلالات فيها تتَّجه من الحاكم إلى الإمام ﷺ وهي أثر من آثار الدلالة السابقة وإن كانت تجري في عكس وجهتها.

إنَّ خطاب السلطة يُطامن ويجاذب، ويتلطّف ويتعطّف، من سجلاّت الكلام التي تؤسِّس سياقاً انفعاليًّا يثني به نفس المخاطَب عن جهةٍ من الانقباض، إلى جهةٍ من الطلاقة والانبساط، ونقف على هذه السجلَّات في الدوال: (تتلجلج/ خليت عنك/ لم أقبل قول أحد فيك/ اصدقني/ لك الأمان).

ولعلَّ لفظ (التَّقيَّة) يحيل على نقطة فارقة في توجيه عمليَّة التخاطب، ففيه دعوة إلى ترك المصانعة والمياسرة، ورعاية النسق المعرفيّ السائد، إلى التصديق الفكريّ، وكشف حجاب اللَّفظ دون المعنى المضمَر.

وأمَّا جواب الإمام ﷺ فكان خطاباً مناظِراً لخطاب الحاكم، وتعبيراً موجزاً عن نجاح مقاصد الحاكم، وإيذاناً بتحوّل المقام التخاطبيّ، من نسق خارج نصِّيّ، إلى عملية إنتاج الدلالات، التي ستغدو نصوصاً ومتوناً في الذاكرة الموروثة، تُحيل على جدل الخطابات في نسيج لغويّ واحد متّسق ومتماسك، لتبدأ عمليات التدليل والاستدلال، والجدل والمحاجّة بعد أن تمَّ التعاقد الأدبيّ خارج حدود النَّصِّ نفسه.

٢- الحُجّة بالأثر واحتواء المخاطَب:

ولما كانت الحُجّة التي عليها مدار الأمر في الاحتجاج، وفق تعريفات الحِجاج، تمثل الوحدة اللُّغويَّة التي يستند إليها كلُّ حجاج بين متخاطبين، سواء في خطبة أم في مناظرة، ولما كانت المعاني تعبِّر عن مقصديَّة المتكلِّم، ومراعاته للموقف الكلاميّ، ومن ثُمَّ مراعاته المقبوليَّة، كان المدخل إلى المناظرة من جهة بنائيَّتها الألسنيَّة أعودَ فائدة، وأقرب محصولاً، ذلك لأنَّ معاني الجمل تنتمي إلى اللُّغة، وهي موضوع علم الدلالة، وفي المقابل فإنَّ المقولات التي عليها مدار القضايا، تنتمي إلى علم الكلام، وهي موضوع علم التخاطب.

وبذلك تكون المقولات أو القولات "تجلِّيات فعليَّة وتحقُّقات وتجسُّدات عمليَّة

للجمل".[١٩] وإذا كانت اللُّغة نظاماً منطقيًّا من العلامات، فإنَّها في المناظرة تدخل في تركيب نسقٍ منطقيّ ثانويّ، بما يُبنى عليه من العلاقات القائمة بين المقولات، التي تؤلِّف نسيج الحُجج التي يتوخَّاها المتكلِّم، مستعيناً بطاقة اللُّغة التواصليَّة والبلاغيَّة، مرَّةً، وبما يتيحه الموقف، على مستوًى تداوليٍّ، فضلاً عمَّا قد توفِّره الأنساق الثقافيَّة، سواء التاريخيَّة منها أم الاجتماعيَّة أم الدينيَّة:

((ثُمَّ قال: لِمَ جوزتم للعامَّة والخاصَّة أن ينسبوكم إلى رسول الله ﷺ؟ ويقولون لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو عليّ، وإنَّما يُنسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنَّما هي وعاء، والنَّبيُّ ﷺ جدُّكم من قِبَل أمّكم؟

فقلت: يا أمير لو أنَّ النبيّ ﷺ نُشِر فخطبَ إليك كريمتك، هل كنت تجيبه؟ فقال: سبحان الله ولم لا أجيبه؟! بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك.

فقلت: لكنَّه ﷺ لا يخطب إلي ولا أزوِّجه.

فقال: ولم؟ فقلت: لأنَّه ولدني ولم يلدك.

فقال: أحسنت يا موسى.))[٢٠]

وليس يعزُب عن الذهن أنَّ خطاب السلطة المتعطّف، قد يُرامُ به المراوغة والمخاتلة بعد أن تمَّ له قانون الصدق/ الأمان، ملوِّحاً بانقسام تكوينيّ للمجتمع، بين عامَّة وخاصَّة، ثُمَّ يُدرِج النسق الاجتماعيّ للمخاطب/ الإمام عليه السلام في نسق مغاير للسلطة، ليعرضه على سلّم احتجاجيّ، ينقل فيه قضيَّة النسب إلى النَّبيّ ﷺ، من حيِّز المعتقدات الواجب قبولها، إلى حيّز الوهميَّات، غير أنَّه بخطابه المخاتل يسبغ عليها صفة المشهورات، متوسِّلاً بعكس المطلقات، وهو "أن يجعل المحمول من القضية موضوعاً والموضوع محمولاً مع حفظه الكيفيَّة وبقاء الصدق والكذب بحاله"[٢١] وبذلك يُصادِرُ على المطلوب بأن يجعل النتيجة المرجوَّة مقدَّمةً مسلَّماً بها، على النحو الآتي:

الموضوع: عليّ عليه السلام وولده

١٩ علي، محمد محمد يونس .مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ط١ (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤)، ١٤.

٢٠ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمة الأطهار، ٤٨/ ١٢٧.

٢١ ابن سينا، أبو علي. الإشارات والتنبيهات مع شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق. سليمان دنيا (مصر: دار المعارف، د.ت.)، ج١/ ٣٦٨.

المحمول: النسب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله

ليعرضها بوساطة عكس القضية على النحو الآتي:

الموضوع: النسب إلى النبيّ من جهة الولد

المحمول: ولد عليّ من فاطمة (من جهة الأم)

فانتقضت القضية المشهورة، مع بقاء حال الصدق نفسه، ومن ثُمَّ دَخلت في حيِّز الوهميَّات، وهو بذلك يضع وسماً اجتماعيًّا/ دينيًّا يحكم الوقائع، ذلك لأنَّه توسَّل بقياس صوريّ مغالط، أنتج غير المطلوب لوضع ما ليس بعلَّة على أنَّه علَّة،[٢٢] وما ليس بمقدِّمة على أنَّه مقدِّمة.

وبذلك أسبغ على القياس صورة القياس البرهانيّ من حيث هو بحث في العلل الضروريَّة.[٢٣]

فالسؤال (لماذا؟) يحيل على حجاج سببيّ من حيث شكله، وهو ينطلق من مقدِّمات، بعضها يحتمل الصدق والكذب، وواحدة منها يقينيَّة (النسب من جهة الأم) وهو ما يثمر مخاطبة برهانيَّة، ممَّا يعني أنَّها تتمثَّل في آليَّة صوريَّة تفيد، من حيث المبدأ، ضبطاً للممارسة العلميَّة، وبخاصَّة في بُعدها التدليليّ، وجعلها تتحرَّك ضمن دائرة الصِّحَّة الصوريَّة.[٢٤]

يأتي بعد ذلك خطاب الإمام عليه السلام، وهو خطاب مؤسِّس على القضيَّة السابقة، ليظهر أنَّ احتجاج الخليفة من نوع قياس الالتباس، وليعرض القضيَّة بوساطة الحجاج بالأثر مرَّة، وبوساطة الحجاج بالقرائن مرَّة أخرى.[٢٥] إذ إنَّه يسلك الطريق السببيَّة نفسها في حجاجه بالأثر، من الربط بين المقدِّمة والنتيجة ربطاً منظَّماً متبادلاً، ممَّا يعني أنَّ الحِجاج بالأثر يستلزم عرض النتيجة، لتبيان الحِجاج الخاطئ الذي قدَّمه الخليفة، بناءً على المقايسة الواهمة، تسبّب في حدوث عيوب بنويَّة في أثناء تأسيس المحاججة، لأنَّها انطلقت من مغالطة منطقيَّة.[٢٦] على الرغم ممَّا فيه من الحُجج الرمزيَّة، المتمثِّلة بالبعد الدينيّ للقضية، متمثِّلاً في شخصيَّة النَّبيّ صلى الله عليه وآله.

---

٢٢ ابن سينا، ١/ ٥٤٥.

٢٣ بدوي، عبدالرحمن. أرسطو خلاصة الفكر الأوروبي (مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٣)، ٧٦.

٢٤ الراضي، رشيد . الحجاج والمغالطة، ط١ (بنغازي – ليبيا: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ٢٠١٠).

٢٥ بلانتان، كريستيان . الحِجاج، ترجمة. عبد القادر المهيري (تونس: المركز الوطني للترجمة، ٢٠٠٨)، ٧٨_ ٧٩.

٢٦ بوقرة، نعمان. نظرية الحِجاج، الموقف الأدبي (اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٥)، ع ٤٠٧ / ٩٣.

فالنتيجة التي استلزمها حِجاج الخليفة ظلَّت مضمرة في سلاسل القول، وهي تُحيل دلاليًّا على النسق الاجتماعيّ، وقد استدرجها خطاب الإمام ﷺ وعرضها على مقياس العقل، ويمكن تمثيلها على النحو الآتي:

- خطبة النبيّ ﷺ كريمة الخليفة ← إيجاب ← لعلَّة القرابة/ لأنه لم يلدك
- خطبة النبي ﷺ كريمة الإمام ← نفي ← لعلة القرابة/ لأنَّه ولدني

لذلك ترتب على عرض القضية برهانياً على شرط العقل والشريعة قيمة إنجازيَّة[٢٧]، تحقَّقت في ملفوظ الخليفة: (أحسنت يا موسى).

وعند هذا المستوى يتَّضح معرفة المتكلِّم/ الإمام ﷺ بدرجة كفاءة المخاطَب، وهو ما يُعرف بالاحتواء التَّامِّ للمخاطَب[٢٨]، كما أنَّ من مظاهر الوعي بالمخاطَب إشراك المخاطَب في الحجاج، من التدرُّج في السؤال، وبطريق وضوح الأدلَّة، واحترام المسلَّمات الخاصَّة به، والبعد عن القضايا التي يبنى فيها الحِجاج على أمور حدْسيَّة خاصَّة يصعب توصيل مضمونها الحِجاجيّ، وذلك كلُّه مقرون إلى البعد عن التعمية والغموض.[٢٩] ممَّا يعني أنَّه ليس يكفي المتكلِّم أن يكونَ مُقتدراً على الكلام والأخذ بناصيّة المنطق والجدل وحسب، وإنَّما لابدّ لنجاحِ الحِجاج من معرفة كفاءة المخاطَب نفسه ليكون إرسالُ الحُجَّة مساوياً لتلقِّيها، وليكون الفَهمُ على وزن الإفهام.

٣- الحُجَّة بالقرينة والموافقة على المطلوب:

إنَّ ترتيب الحُجج بحسب قوَّتها يشكل ما دعاه ديكرو بالسلَّم الحِجاجيّ، الذي يتألَّف من الحُجج اللُّغويَّة، وهي متفاوتة في قوَّتها الحِجاجيَّة، وترتيبها قد يكون صعوداً من الأضعف إلى الأقوى، أو نزولاً من الأقوى إلى الأضعف، بخلاف البراهين المنطقيَّة المتساوية في قوَّتها، والمتماثلة في طبيعتها.[٣٠]

غير أنَّ ترتيب الحُجج في خطاب الإمام ﷺ جاء على ما أراد الحاكم، إذ كان يستشعر نزوعاً

٢٧ الراضي، رشيد. "الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وَ ديكرو،" عالم الفكر المجلد:٣٤ (٢٠٠٥) : ٢١٥

٢٨ الأمين، محمد سالم. حجاجية التأويل، في البلاغة المعاصرة، ط١ (طرابلس: كتاب فضاءات مجلة للفكر والنقد والثقافة ،المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ٢٠٠٤)، ٢٠.

٢٩ الأمين، ٢٠.

٣٠ ديكرو، أزفالد . السُّلَّميات الحِجاجية، ط١ (الدار البيضاء: جامعة الحسن الثاني، ٢٠٢٠)، ٤٨/ ١٢٨.

إلى معرفة المضمر في خطاب الإمام عليه السلام، وليس في الترتيب دليل على تراتبيَّة الحُجج، سوى أنَّ الاحتكام إلى النَّصِّ القرآنيِّ أعلى درجة في التصديق بالحُجج، ومن ثُمَّ فيه برد اليقين.

وبناءً على هذا قدَّم الإمام عليه السلام الحُجَّة بالأثر على الحُجَّة بالقرينة، لأنَّ الحُجَّة بالأثر إقناعيَّة، أمَّا الحُجَّة بالقرينة فهي يقينيَّة. ولهذا فقد ضمَّن احتجاجَهُ آيةً من سورة الأنعام، ولم يكن احتجاجه بها من نوع الاستشهاد، وإنَّما عُدِل فيه إلى الاحتجاج بالقرينة لما لها من القوَّة والثبات، الذي لا سبيل فيه إلى الظَّنِّ في الوعي الديني لدى المتناظرَين.

فالقرينة تتمتَّع بيقينيَّة لا يمكن دحضها، وهي، من ثَمَّ، تنتمي إلى حيِّز المشترك الذي يتقاطع فيه الخطابان، نعني بذلك النَّصَّ القرآنيَّ، وهو ما احتكم إليه الحاكم، وحاجّ الإمام عليه السلام في أن يأتيه بالدليل من النَّصِّ القرآنيِّ، إذ إنَّ حُجَّته حُجَّة قطعيَّة لا مراء فيها، ولا ظنّ. ومع ذلك لم تخلُ الحجَّةُ القطعيَّة من القياس وصولاً إلى الإقناع، فالإمام قاس ذرِّيَّة النَّبيّ صلى الله عليه وآله من فاطمة عليها السلام على ذرِّيَّة إبراهيم عليه السلام من مريم عليها السلام وصولاً إلى النَّبيِّ عيسى عليه السلام:

((ثُمَّ قال: كيف قلتم إنا ذرِّيَّة النَّبيِّ والنَّبيُّ صلى الله عليه وآله لم يُعقب، وإنَّما العَقِب للذكر لا للأنثى، وأنتم ولد الإبنة، ولا يكون لها عَقِب؟ فقلت: أسألك بحقِّ القرابة والقبر ومن فيه إلَّا أعفيتني عن هذه المسألة. فقال: لا، أو تخبرني بحِجَّتكم فيه يا ولد عليّ، وأنت يا موسى يعسوبهم، وإمام زمانهم، كذا نُهي إليّ، ولستُ أعفيك في كلِّ ما أسألك عنه، حتَّى تأتيني فيه بحُجَّة من كتاب الله، فأنتم تدَّعون معشرَ ولد عليّ أنَّه لا يسقط عنكم منه شيء ألف ولا واو، إلَّا وتأويله عندكم، واحتججتم بقوله جل جلاله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم.

فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: "ومن ذرِّيَّته داود وسليمان وأيُّوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى" من أبو عيسى يا أمير .... ؟ فقال: ليس لعيسى أب. فقلت: إنَّما ألحقناه بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام وكذلك أُلحقنا بذراري النبيّ صلى الله عليه وآله من قِبل أمِّنا فاطمة عليها السلام)).[٣١]

٣١ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمة الأطهار، ٤٨/ ١٢٨.

لقد بُني خطاب الإمام ﷺ في مسألة الذُّرِّيَّة على سلّم حِجاجيّ، ذي علاقة ترتيبيَّة معينة، ويتَّسم السلّم الحِجاجيّ بأنَّ كلَّ قول يَرِدُ في درجة ما من السلّم، يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى،[٣٢] ممَّا يحيل على التدرجيَّة في السلم الحِجاجيّ، وهو مبدأ يتَّصل بالعلاقة بين سلّمين حِجاجيّين.[٣٣]

ويمكن تمثيل السُّلَّم الحِجاجيّ في القياس المنطقيّ على النحو الآتي:

النبيّ مُحَمَّد ﷺ	النبيّ إبراهيم ﷺ
↓	↓
فاطمة ﷺ	مريم ﷺ
↓	↓

ذُرِّيَّة النبيّ مُحَمَّد ﷺ من طريق فاطمة ﷺ ذُرِّيَّة النبيّ إبراهيم ﷺ من طريق مريم ﷺ

وبذلك يستوي التناظر بين القضيَّتين، من حيث الموضوع والمحمول، وتتَّضح القيمة الإنجازيَّة للخطاب الحِجاجيّ الذي عقده الإمام ﷺ على الحِجاج بالقرائن التي استمدَّها من النصِّ القرآنيِّ من سورة الأنعام.

وعلى هذا تكون حجج الإمام ﷺ قطعيَّة، يُقصد بها التصديق، في حين كانت حُجج الحاكم إقناعيَّة يُقصد بها الظَّنّ بالمطلوب،[٣٤] وهي من ضروب الأقاويل الموهمة أنَّها صدق، بتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول، أو المقول له.

لهذا كان التصديق أعلى رتبةً من الإقناع، لأنَّه يعتمد استدلالاتٍ برهانيَّةً يشترط فيها صدق المقدِّمات، بخلاف الاستدلال الخطابيّ، إذ يكفي أن تكون مقدِّماته مكوَّنة من آراء مقبولة أو مشهورة أو مظنونة، لدى كلِّ الناس أو أغلبهم، أو لدى الفلاسفة، كلّهم أو أغلبهم أو أكثرهم وجاهةً أو أكثرهم شهرةً[٣٥]. لذا فإنَّ الجدليّ يتصَّرف في القضايا على شروط المنطق بينما الخطابيّ يتصرَّف فيها على الرسوم المعتادة في مادَّة قياسه وفي صورته، حتَّى وإن كانت

٣٢ العزاوي، أبو بكر. اللغة والحِجاج، ط١(سور الأزبكية: مطبعة العمدة،د.ت.) ٢١.
٣٣ العزاوي، ٣١.
٣٤ نكري، عبد النبي بن عبد الرسول. جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تحقيق. قطب الدين محمود بن غياث الدين، ط٢ (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٧٥)، ج٢/ ١٤.
٣٥ بيرلمان، شاييم . الإمبراطورية الخطابية، صناعة الخطابة والحجاج، ترجمة. الحسين بنو هاشم، ط١ (بنغازي، ٢٠٢٢)، ٧٦.

الصورة قياسيَّة في الظَّنِّ استعملها.[٣٦]

وتأسيساً على ذلك كان الحاكم في حِجاجه خطابيًّا إقناعيًّا، في الوقت الذي كان خطاب الإمام عليه السلام جدليًّا تصديقيًّا، ولم يقصد منه إلَّا إلى إيقاع اليقين، ولا شيء غير اليقين.

٤- المنهج العقليّ في خطاب الإمام الكاظم عليه السلام:

ولم يكن ذاك إلَّا عن بصيرة ورؤية أخذ الإمام عليه السلام بناصيتها، ولم يكن خطابه محض إنتاج دلاليّ لسلاسل القول، بما للُّغة من فاعليَّة في إنتاج الدلالة، إنَّما هو بناء عقليّ متماسك يصدر عنه على بيّنة، وعن حجَّة وبرهان. إذ إنَّه عليه السلام في صحيفةٍ استكتبه إيَّاها الحاكم أتى على المنهج جملةً، وأبان عن الطريقة فيه:

((بسم الله الرحمن الرحيم"

أمور الدنيا أمران: أمر لا اختلاف فيه، وهو إجماع الأمَّة على الضرورة التي يضطرون إليها، والأخبار المجتمع عليها، المعروض عليها شبهة، والمستَنبَط منها كلّ حادثة، وأمر يحتمل الشكَّ والإنكار، وسبيل استنصاح أهله الحُجَّة عليه، فما ثبت لمنتحليه من كتاب مستجمَع على تأويله، أو سنَّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله لا اختلاف فيها، أو قياس تعرف العقول عدله، ضاق على من استوضح تلك الحجَّة ردُّها، ووجب عليه قبولها، والإقرار والديانة بها، وما لم يثبت لمنتحليه به حجَّة من كتاب مستجمع على تأويله، أو سنَّة عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله لا اختلاف فيها أو قياس تعرف العقول عدله، وسع خاصّ الأمَّة وعامّها الشَّكّ فيه والإنكار له، كذلك، هذان الأمران من أمر التوحيد فما دونه، إلى أرشّ الخدش فما دونه، فهذا المعروض الذي يُعرض عليه أمر الدين، فما ثبت لك برهانه اصطفيتَه، وما غمض عنك ضوؤه نفيتَه، ولا قوَّة إلَّا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل))[٣٧].

إنَّ هذه الصحيفة المكتوبة وما جاء فيها تُعَدُّ نظريَّة كاملة في الحِجاج والاحتجاج، وفيها بسطٌ وافٍ للأدلَّة التي يُتَوصّل بها إلى العلم بدلالة العقل، إذ به ينماز الصدق من الكذب، والحسن من القبيح، وبه يعرف أنَّ الكتاب حجَّة، وكذلك السنَّة والإجماع؛ إذ تنطوي على

٣٦ ابن سينا، أبو علي. الشفاء ـ المنطق ـ الخطابة، تحقيق. الأب قنواتي وآخرين (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥٢)، ٣٦١.
٣٧ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٤٨/ ١٢٤.

سلّم حجاجيّ يرتّبُ أنواع الحُجَج، ومقامات الاحتجاج، كما يرتِّبُ أحوال القائل والسّامع؛ بين منتحِل ومتأوِّل، وشاكٍّ ومنكِر، وما يلزمُ لكلِّ مقامٍ من المقال، وعمدة ذلك كلِّهِ العقلُ؛ إذ هو مناط الاحتجاج، وبه يقعُ التصديق والإنكار ((ورُبَّما تعجَّبَ من هذا الترتيب بعضهم فيظنّ أنَّ الأدلَّة هي الكتاب والسنَّة والإجماع فقط، أو يظنّ أنَّ العقل إذا كان يدلُّ على أمور فهو مؤخِّر وليس الأمر كذلك، لأنَّ الله تعالى لم يخاطب إلَّا أهل العقل))[٣٨].

فمن المقولات ما لا تختلف عليه الأمَّة، وهو إمَّا أن يكون مقبولاً لشهرته أو ليقينيَّته، ومنه ما يكون ذائعاً مشهوراً، لكنَّه من باب المظنون الذي يترجَّح فيه الصّحة والخطأ، والصدق والكذب، وأمَّا ما كان محلَّ اختلافٍ عند الأمَّة فالمعوّل فيه على العقل، وهو مُلزمٌ وموجِب لمن استوضحَ الحُجّة، فذلك هو المنهاج من أصغر الأمور إلى أعظمها، وعند عامّي الأمّة وخاصِّها، فما ثبت بالبرهان هو اليقين وما غمضَ كان للعقل سبيلٌ إليه لإثباته أو نفيه.

وخلاصة القول أنَّ الجدل في المناظرة ليس يكفيه أن يهتدي بطرق القياس، إذ إنَّ من القياس ما يوهم الصدق، فيُلبِس الحقَّ بالباطل، والباطل بالحقِّ، وأنَّ الحِجاج في المناظرة حِجاج برهانيّ علميّ مختلف عن الحجاج الخطبيّ، مع تشابه المقام التخاطبيّ، فالأوَّل دليله العقل وسبيله البرهان، والثاني دليله اللُّغة وطريقه القياس الصّوريّ، وبناءً على ذلك لم يكن حجاج الإمام الكاظم ﷺ امتثالاً لرسومٍ معتادة في البلاغة العربيَّة، وإنَّما كان هدياً من أنوار العقل، وتبصرة بمسالك الحقِّ، ومراتب الحجج، إذ العقل رائد الروح وترجمان العلم.

من هنا عرض القضايا ومقدِّماتها ونتائجها على شرط العقل، كمعيار للصدق والتصديق، ومازَ به المشهور من المظنون، وقاس به الغائب على الشاهد لإيقاع اليقين، على بصرٍ منه بمواضع الحجَّة والشبهة، وتبيَّن لمواطن البرهان ومسالكه في اللِّسان والبَنان.

٣٨ الجشمي، عبد الجبار الحاكم .فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق. فؤاد سيّد (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٤)، ١٣٩.

نتائج البحث:

وبعد؛ فقد انتهى البحث إلى جملة من النتائج نوجزها في الآتي:

- إنَّ المؤلَّفات البلاغيَّة، وإن كانت انتهت إلى مرحلة من التقعيدِ والتعقيد في الخطاب البيانيّ، فإنَّها قد اشتملت على بذور نظريَّة الحِجاج، التي انتهت إليها علوم النَّصِّ، بفروعها التداوليَّة والأسلوبيَّة والتأويليَّة. ولم تكن نظريَّة الحِجاج، بناءً على ذلك، نبتاً غريباً عن الذهنيَّة العربيَّة التي صدرت عنها البلاغة في مختلف مراحلها، بصرف النظر عن الأثر اليونانيّ الذي اشتملت على تفصيله مظانٌّ لم يكن في هذا البحث مُتَّسعٌ للوقوفِ عليه.
- إنَّ الخطاب الثقافيّ خارج أسوار البلاط العبَّاسيّ لم يكن دائماً امتثاليًّا لخطاب السلطة، التي كانت تعمل على تذويب الخطابات في سياقها المعرفيّ، غير أنَّ خروجه على النسق الثقافيّ السائد لم يكن صادراً عن نزعةٍ دينيَّة صِرفٍ، بقَدْر ما كان صادراً عن بناء عقليّ، ونظام منطقيّ له مقولاته وحُججه وأدلّتُهُ التي ثبتت عند عرضها على شرط العقل، في ممارسة أظهرت شدّة مِراسه بالمخاطبات، وبراعته في الجدل، إذ أخذ بناصية العقل والمنطق وقَرَنَ إليها ذكاء القلب واللّسان.
- إنَّ بين الجدل الخطابيّ والجدل البرهانيّ بوناً أظهره التحليل، إذ يتوسَّل الجدل الخطابيّ بالقياس الصّوريّ، وقد يُصادر على المطلوب، فيجعل من النتائج مقدِّمات ينطلق منها بغية إيقاع التسليم واليقين عند المخاطَب، على سبيل المغالطة المنطقيَّة القائمة على الإيهام، ولا يثبت أمام هذا اللون من الحِجاج إلَّا من أُوتيَ بسطةً في الجدل البرهانيّ العلميّ الذي يتوخّى إيقاع اليقين، منطلقاً من مقدِّمات صادقة، فيعتبر أواخر الكلام بأوائله، ويعطف مصادره على موارده، ويميزُ مظنونه من مشهوره، ويستبين صحيحه من فاسده.
- إنَّ التحليل اللُّغويّ والبلاغيّ الصِرف لخطاب المناظرة يظلُّ قاصراً عن بلوغ ما تضمره الأنساق الدَّالَّة، التي تُحيلُ عليها عمليَّات التخاطب بوصفها علاقات متداخلة بين الأبنية العقليَّة، من هنا كانت أهمِّيَّة التحليل الدلاليّ في الكشف عن الآليات التي تعملُ اللُّغة بوساطتها، بوصفها نظاماً منطقيًّا، كما يُسعفُ في الوقوف على الفاعليَّة التي تنشطُ

مـن خلالهـا المتواليـات المنطقيَّـة بوصفهـا وحـداتٍ عقليَّـةً تجريديَّـةً، تنهـضُ عـلى نظـام قـوي ومشـترك هـو اللُّغـة.

- إنَّ مقـام الحِجـاج يسـتلزم وجـود أكثـر مـن خطـاب وذلـك لأنَّ الاحتجـاج في أصلـه قائـم عـلى المغالبـة بالحُجّـة وهـي تُحيـل عـلى المشـاركة، ومـن ثَـمَّ فقـد اسـتلزم تحليلـه الوقـوف عـلى النسـق الاجتماعـيّ، ومـا يعرضـه مـن مقـولات خـارج نصِّيَّـة تؤسِّـس للمقـام التخاطبـيّ لمـا للحجـاج مـن بُعـد تـداوليّ، فضـلاً عـن أبعـاده اللِّسـانيَّة والبلاغيَّـة.
- إنَّ البلاغـة العربيَّـة مـا تـزال ذلـك العلـمَ الـذي لا ينفـد معِينُـهُ، ومـا زال فيهـا بـذورٌ ألقتهـا العقليَّـة العربيَّـة في متونهـا، فـلا غرابـة أن تكـون مأمَّـاً للدّارسـين، يعـودون إليهـا بحثـاً عـن الأصـول النظريَّـة والتطبيقـات النقديَّـة لمـا جـاءت بـه علـوم النَّصّ منـذ مطلـع القـرن العشريـن إلى يـوم النـاس هـذا.

المصادر

ابـن رشـد، أبـو الوليـد بـن رشـد. تلخيـص كتـاب أرسـطوطاليس في الجـدل. تحقيـق مُحَمَّـد سـليم سـالم. الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب، ١٩٨٠.

ابـن فـارس. معجـم مقاييـس اللغـة. تحقيـق عبـد السـلام هـارون. بـيروت: دار الجيـل، د.ت.

ابـن سـينا، أبـو عـلي. الإشـارات والتنبيهـات مـع شرح نصـير الديـن الطوسي. تحقيـق سـليمان دنيـا. مـصر: دار المعـارف، د.ت.

ابن سينا، أبو علي.الشفاء ـ المنطق ـ الخطابة. تحقيق الأب قنواتي وآخرين. القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥٢.

الأفريقي، مُحَمَّـد بـن مكـرم بـن منظـور. لسـان العـرب. ط١. بـيروت: دار صـادر، د.ت.

الأمـين، مُحَمَّـد سـالم. حِجاجيـة التأويـل، في البلاغـة المعـاصرة. ط١. طرابلـس: كتـاب فضـاءات مجلـة للفكـر والنقـد والثقافـة ،المركـز العالمـي لدراسـات وأبحـاث الكتـاب الأخـضر، ٢٠٠٤.

الإدريـسي، يوسـف. عتبـات النـص في الـتراث العـربي والخطـاب النقـدي المعـاصر. ط١. بـيروت: الـدار العربيـة للعلـوم نـاشرون، ٢٠١٥.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٣.

الجاحـظ، ابي عثـمان عمـرو بـن بحـر. كتـاب الحيـوان. تحقيـق عبـد السـلام هـارون. القاهـرة: مكتبـة الخانجـي، ٢٠٠٣.

الجشـمي، عبـد الجبـار الحاكـم. فضـل الاعتـزال وطبقـات المعتزلـة. تحقيـق فـؤاد سـيّد. تونـس: الـدار التونسـية للنـشر، ١٩٧٤.

الـراضي، رشـيد. الحجـاج والمغالطـة. ط١. بنغـازي – ليبيـا: دار الكتـاب الجديـدة المتحـدة، ٢٠١٠.

الـراضي، رشـيد. "الحجاجيـات اللسـانية عنـد أنسـكومبر وَ ديكـرو." عـالم الفكـر ٣٤ (٢٠٠٥).

العـزاوي، أبـو بكـر. اللغـة والحِجـاج. ط١. سـور الأزبكيـة: مطبعـة العمـدة، د.ت.

العمـري، مُحَمَّـد. البلاغـة العربيـة، أصولهـا وامتداداتهـا. المغـرب: أفريقيـا الـشرق، ١٩٩٩.

القرطاجنّي، أبـو الحسـن حـازم. منهـاج البلغـاء وسراج الأدبـاء. تحقيـق مُحَمَّـد الحبيـب ابـن الخوجـة. ط٢. بـيروت: دار الغـرب الإسـلامي، ١٩٨١.

المجلـسي، مُحَمَّـد باقـر. بحـار الأنـوار الجامعـة لـدُرر أخبـار الأئمـة الأطهـار. ط٣. بـيروت: دار إحيـاء الـتراث العـربي، د.ت.

النعمـي، حسـن. "بلاغـة المجادلـة." جـذور الـتراث، ٢٠٠٥.

بـدوي، عبدالرحمـن. أرسـطو خلاصـة الفكـر الأوروبي. مكتبـة النهضـة المصريـة، ١٩٤٣.

بلانتـان، كريسـتيان. الحِجـاج. ترجمـة عبـد القـادر المهـيري.تونـس:المركـزالوطنـيللترجمـة،٢٠٠٨.

بوقـرة، نعـمان. نظريـة الحِجـاج، الموقـف الأدبي. اتحـاد الكتـاب العـرب، ٢٠٠٥.

بيرلمـان، شـاييم. الإمبراطوريـة الخطابيـة، صناعـة الخطابـة والحجـاج. ترجمـة الحسـين بنـو هاشـم. ط١. بنغـازي، ٢٠٢٢.

حسين، طه. تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، مقدمة نقد النثر المنسوب إلى قدامة. تحقيق عبد الحميد عبادي. المطبعة الأميريّة، د.ت.

ديكـرو، أزفالـد. السُّـلَّميات الحِجاجيـة. ط١. الـدار البيضـاء: جامعـة الحسـن الثـاني، ٢٠٢٠.

سـلمان، عـلي مُحَمَّـد عـلي. الحجـاج عنـد البلاغيـين العـرب، ضمـن دراسـات الحجـاج والاسـتدلال الحجاجي(دراسـات في البلاغـة الجديـدة) لمجموعة مـن الباحثـين. دار ورد الأردنيـة، ٢٠٠١.

عـزام، مُحَمَّـد. النـص الغائـب. دمشـق: اتحـاد الكتـاب العـرب، ٢٠٠١.

عـلي، مُحَمَّـد مُحَمَّـد يونـس. مقدمـة في علمـي الدلالـة والتخاطـب. ط١. بـيروت: دار الكتـاب الجديـد المتحـدة، ٢٠٠٤.

نكـري، عبـد النبـي بـن عبـد الرسـول. جامـع العلـوم في اصطلاحـات الفنـون. تحقيـق قطـب الديـن محمـود بـن غيـاث الديـن. ط٢. بـيروت: مؤسسـة الأعلمـي، ١٩٧٥.

هاينه، فولفجانج. مدخل إلى علم اللغة النصي. ترجمة فالح العجمي. جامعة الملك سعود: سلسلة اللغويات الجرمانية، د.ت.

هـلال، مُحَمَّـد غنيمـي. النقـد الأدبي الحديـث. بـيروت: دار العـودة، ١٩٧٣.